

## سورة فاطر

ستوقف في هذه السورة عند الظواهر التي تتضمنها كل من الأبعاد الأساسية الثلاثة التي يتحرك خلالها هذا البحث: اللغوي والبلاغي والفكري. وستكون هذه الإلمامة السريعة بالسورة بمثابة نموذج بين يدي كل من يريد أن يطبق مثل هذا النوع من الدراسة تطبيقاً أولياً موجزاً وغير متعمق، ولكنه مفيد وكاف إلى حد كبير، على أي من السور القرآنية.

أما من أراد النموذج المتعمق لهذه الدراسة فأمامه، بعد هذه السورة، سورة (الفاتحة) والسور العشرون التي خصص لها في الأصل هذا الجزء من البحث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنٍ وَثُلَاثَ وَرُبْعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَذِنُوا لِي لَئِن لَوِيتُ سَمَوَاتٍ وَمَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا نُجُوجُكُمْ وَأَنْجُلُكُمْ لِي أَدَّبْتُهُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ أَلَمْ يَرْزُقْكُمْ مِنْ أَمْسِئِهِ وَإِنْ يَبْتَأِ اللَّهُ بِنَافِلِهِ فَذَرْهُمْ لِيُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الْعِلْمِ ﴿٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٤﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٦﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٧﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْتَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْشُّورُ ﴿٨﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ

يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ  
شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ  
أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَقْصُ مِنْ  
عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ  
فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ، وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لِحِمًّا طَرِيبًا وَاسْتَخْرِجُونَ  
حَيَلَةً تَلْسُونَهَا وَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرٌ لِيَتَنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ  
﴿١٢﴾ يُوَلِّجُ الْبَلَدَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ  
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجْلِ مُسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ  
مِنْ دُونِهِ، مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ  
سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ  
﴿١٤﴾ \* يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا الْفِرْقَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ  
يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ  
أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُذِرُ  
الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ،  
وَالَى اللَّهُ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ  
﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ  
وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا  
وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ  
قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ  
ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَابِيٌّ  
سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى  
اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ عَلَى اللَّهِ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ  
اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً  
لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ  
شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا  
 فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ  
 هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ  
 ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ  
 إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا  
 نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ  
 فِيمَوْتُوهَا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ  
 يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم  
 مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ  
 ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾  
 هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ  
 عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ  
 الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرْوِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ  
 آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا  
 ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ  
 أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ  
 لَّيَكُوننَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَجَابَرَا  
 فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ  
 الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي  
 الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ  
 اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾  
 وَلَوْ يَوَاجِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنَ دَابِتِهِ  
 وَلَئِن يُوَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ  
 بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

## أولاً: البعد اللغويّ الجديد في سورة (فاطر)

### ١- الألفاظ والأدوات والمصطلحات:

أهمّ الظواهر التي تأتي تحت مظلة هذا البعد هي ظاهرة الألفاظ الجديدة التي أدخلها القرآن إلى قاموسنا اللغويّ، سواءً تلك التي صيغت صياغةً جديدةً من جذرٍ سبق أن عرفت العربية منه صيغاً أخرى مختلفة، أو تلك التي أوجدها القرآن من جذرٍ جديدٍ لأول مرة.

وهناك نوعٌ آخر من الألفاظ القرآنيّة الجديدة هو تلك المادّة اللفظيّة القديمة التي منحها القرآن، من خلال سياقاتها الجديدة واستعمالاتها المتنوّعة داخل الآيات، معنيّ، وربّما معاني جديدة عدّة.

ولكنّ النوع الأهمّ والأكثر من الألفاظ التي أدخلها القرآن في قاموسنا اللغويّ هو تلك المجموعة الهائلة من الكلمات التي انتقلت من معناها الأصليّ الذي تعارف عليه العرب قبل الإسلام إلى معناها القرآنيّ الاصطلاحيّ الجديد. ونجد هذا النوع من الألفاظ مبثوثاً في كلّ مكان، إذ لم يبق محصوراً بين دفتي القرآن الكريم، كما هو واقع كثيرٍ من الظواهر اللغويّة القرآنيّة الأخرى، بل تسرّب إلى الحديث الشريف، ثم امتدّ إلى لغتنا الأدبيّة والعلميّة، بل إلى لغتنا اليوميّة المحكيّة أيضاً.

ونستطيع أن نجد في سورة (فاطر) ما لا يقلّ عن مائة وستين من الألفاظ والمصطلحات والأدوات ذات الاستعمالات الجديدة، ولا يدخل في هذا الرقم ما يتكرّر منها في السورة أكثر من مرّة.

فإذا تذكّرنا هنا ما أسلفناه في الجزء الأوّل من البحث عن الهزّة التي أحدثتها في نفوسنا عبارةً مبتكرةً واحدةً افتتح بها الرافعيّ إحدى رسائله الوردية في كتاب (أوراق الورد) فبدأ الرسالة بقوله (أما قبل)، وإذا تذكّرنا ما أوردناه في مقدّمة ذلك الجزء من أنّ عدداً من الشعراء العرب اكتسبوا أسماءهم، أو ألقابهم التي عُرفوا بها

فيما بعد، من لفظٍ واحدٍ جديدٍ انفردوا باستخدامه في شعرهم فُنسبوا بعد ذلك إلى هذا اللفظ، ومنهم النابغة الذبيانيّ والتملّس والمرقش الأكبر والمسيّب، إذا تذكّرنا كلّ هذا عرفنا قيمة أن يكون هناك مثل هذا العدد الكبير من الألفاظ والمصطلحات الجديدة في سورةٍ من ستّ صفحات - حسب معظم الطبعات المتداولة لكتاب الله تعالى -، وقيمة أن تجتمع هذه الألفاظ، ضمن السورة، مع مئاتٍ جديدةٍ أخرى من التراكيب والتعبيرات والسبائك والصور والفنون البلاغية الجديدة، وكذلك عناصر اللغة المنفتحة التي أحدثها القرآن في لغتنا، والجوامع من الكلّم التي أدخلها في قاموس لغتنا المكتوبة والمحكيّة، وكلها ممّا لم تعرفه العربيّة أو العرب قبل القرآن الكريم، بل استحال عليهم استخدام كثيرٍ منه بعد نزول القرآن، وإلى هذه الساعة.

#### أ- الألفاظ الجديدة في السورة:

ونستطيع بسهولة أن نعثر في سورة (فاطر) على عشرات الألفاظ الجديدة كلياً، وهي التي لم يسبق القرآن إليها، سواءً أكانت مشتقّةً من جذرٍ عرفه العرب قبل ذلك، أم جاءت من جذرٍ جديدٍ غير معروفٍ أو جده القرآن الكريم. ومن أبرز هذه الألفاظ:

الملائكة - معشار - قَطْمِير - التناوش - النشور - يصطرخون - لُغوب - أجاج - الفُلُك - مَواخر - الحميد - يُذهِبُكم - وازرة - تَرَكي - المصير - الظُّلمات (بالجمع) - غرابيب (بالجمع) - العلماء (بالجمع) - يَتَلَوْنَ - الشيطان - حِزْبَهُ - عَدْن - أساور - المُقامة - جهنّم - آتيناها - بيّنة.

#### ب- الألفاظ القديمة ذات المعنى الجديد:

ومن السهل أن نجد فيها أيضاً ما لا يقلّ عن عشرين لفظاً سبق للعرب أن عرفوها قبل الإسلام، ولكنّ القرآن الكريم منحها، من خلال السياقات الجديدة التي وردت فيها، معنىً، وربّما أكثر من معنىٍ جديدٍ خاصٍّ بالقرآن الكريم وحده. ومن هذه الألفاظ القديمة ذات الاستعمالات الجديدة في السورة:

فاطر - مُمَسِّكٌ - مُرْسِلٌ - تُؤَفِّكُونَ - (وَعَدُّ اللَّهِ) حَقٌّ - الغرور - زُيِّنَ -  
تُثِيرُ (سَحَاباً) - يَمْكُرُونَ - (كُلُّ) يَجْرِي - شِرْكٌ (بمعنى شركة أو شراكة) - مُثْقَلَةٌ -  
- تَزُولَا - كَسَبُوا - تَزَكَّى - نَكِيرٌ - تَبُورٌ - خَلَاتِفٌ - تُرْجَعُ (الأمور) - يَنْظُرُونَ  
(بمعنى: ينتظرون).

### ت- الألفاظ الاصطلاحية الجديدة:

وأكثر الألفاظ القرآنية الجديدة اتخذ فيما بعد معنى اصطلاحياً استقر عليه،  
وأصبح جزءاً من القاموس اللغوي لكل ما يتعلق بالدراسات الشرعية أو الفقه  
الإسلامي، فهو يُنبئ عن أصله القرآني حال سماعه، حتى إن استخدم في ثانيا  
أدبياتنا الأخرى.

ويشكل هذا النوع من المصطلحات الخزان الأكبر بين الجديد من الألفاظ  
القرآنية. وفي سورة (فاطر) أكثر من مائة من هذه المصطلحات هذا بعضها:

الخالق - قدير - رحمة - العزيز - الحكيم - نعمة - يرزق - رُسل - وَعَدُّ (الله)  
- السعير - كفروا - آمنوا - الصالحات - أجر - يُضِلُّ - يهدي - عليم - يرفعه -  
السيئات - عذاب - يبور - البحران - فضله - تشكرون - سخر - المملك - تدعون  
- يكفرون - خبير - الفقراء (إلى الله) - تُنذِرُ - الغيب - أقاموا (الصلاة) - النور  
- نذير - (أرسلناك) بالحق - بشيراً - نذيراً - يكذبوك - كذب - رُسلهم - البيئات  
- الزُّبر - الكتاب - أخذت - ثمرات - عزيز - غفور - شكور - أنفقوا - رزقناهم -  
يرجون - تجارة - يُوفِّيهم - أجورهم - أوحينا - مُصَدِّقاً - بصير - أورثنا - اصطفيانا  
- عبادنا - مُقْتَصِدٌ - الخيرات - الفضل - الحزن - يَمَسُّنَا - يُقْضَى - نجزي - كفور  
- أَخْرَجْنَا - صالحاً - يتذكر - النذير - ذوقوا - كفر - كُفْرٌ - خساراً - أرأيتم -  
شركاء - غروراً - تزولا - زلنا - استكباراً - يحيق - سُنَّةٌ - عاقبة - دابة - أجل..

### ث- الأدوات التي تحمل معاني جديدة:

عرفنا في الجزء الأول من البحث أن القرآن كثيراً ما يمنح الأدوات، بمختلف  
أبوابها النحوية، معاني جديدةً اختلفت عن كل ما عرفه العرب لها من استعمالات  
أو معانٍ قبل ذلك، وربما بعد ذلك أيضاً، وعن استعمالات الحديث الشريف أيضاً.

وسبق أن درسنا من هذه الأدوات ذات الاستعمال الجديد في القرآن الكريم  
عشرات الأدوات كان أهمها:

- الأداة (كان) التي انفرد القرآن حتى يومنا هذا باستخدامها بمعنى (إن)، شأنه  
مع كثيرٍ من استعمالاته الجديدة للأدوات الأخرى:

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]

- الأداة (ما زال) التي تأتي في القرآن مختصةً بالزمن الماضي، فتبدأ وتنتهي  
فيه، خلافاً لاستخداماتنا التقليدية التي تبدأ من الماضي وتستمر إلى  
الحاضر (كقولنا: ما زال المطر ينهمر):

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]

- الأداة (لا يزال) التي تستغرق في لغتنا الزمن الماضي والحاضر ثم تتوقف  
عند الحاضر فلا تتجاوزه، ولكنها تستغرق في القرآن الكريم الزمن الماضي  
والحاضر والمستقبل معاً:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَالُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]

- الأداة (لما) التي تأتي في القرآن بمعنى (ثم) حيناً، فتتخلى عن جوابها أو  
ما تتعلق به:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا  
حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ فَضَلَّهَا﴾ [يوسف: ٦٨]

وبمعنى (إلا) حيناً آخر:

﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢]

- الأداة (قد) التقديرية التي تسبق المضارع عادةً، وقد استخدمها القرآن  
بمعنى أختها الحقيقية التي تسبق الماضي:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِفِينَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٨]

- أداة الاستفهام (هل) التي كثيراً ما يتحوّل معناها في القرآن إلى (قد):

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ١ ﴾ [الإنسان: ١]

- الأداة (لو) الشرطية، وقد جاءت في القرآن بمعنى أختها التي للتمني فلم تحصل على جواب للشرط، رغم ورودها في سياق الشرط:

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ اللَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١]

- أداة النفي (لا) التي كثيراً ما تأتي بمعنى الإثبات (نعم) أو بمعنى (حقاً):

﴿ فَلَا أَقْسَرُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ ٧٥ ﴾ [الواقعة: ٧٥]

- الأداة (إما) التي قد تأتي بمعنى (إن):

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ٤١ ﴾ [الزُّخْرُف: ٤١]

- الأداة المركّبة (كما) التي يتحوّل معناها أحياناً إلى (لقد):

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ١٥١ ﴾ [البقرة: ١٥١]

- أداة العطف (ثم) تتحوّل عن معانيها الأساسية، على اختلافها، لتفيد التأكيد:

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ١٨ ﴾ [الانفطار: ١٧-١٨]

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤ ﴾ [التكاثر: ٣-٤]

- (حاشا) الاستثنائية -بالألف- تصبح في القرآن (حاش) التنزيهية -ومن غير ألف- مع إسنادها للفظ الجلالة:

﴿ وَقُلْنَا حَسْبَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ [يوسف: ٣١]

- ﴿ قُلْ حَسْبَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ [يوسف: ٥١]

- الأداة المركبة (إِتْلًا) تنقلب في القرآن لتصبح بمعنى (لكي):

﴿إِتْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾ [الحديد: ٢٩]

- (إِذْنٌ) - أو (إِذَا) - الناصبة للمضارع تتوقف في القرآن عن النصب  
حيثما وردت:

﴿وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]

﴿وَإِذَا لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦]

- همزة الاستفهام (أ) تقترن في القرآن بـ(إذا) الشرطية، ليتكوّن منهما معاً أداة  
جديدة للإنكار، ولإنكار البعث دون غيره:

﴿وَقَالُوا أَيُّذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَيُّذَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]

- الأداة (إِلَّا) تتحوّل عن استثنائيتها، لتصبح اسماً بمعنى (سوى) أو (غير)  
فتُعرّب صفةً مع عدم إعمالها فيما بعدها:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]

- (لا) النافية تكتسب قوّة (لا) الناهية فتدخل نون التوكيد على المضارع  
المنفيّ بها، ومن شأن هذه ألا تدخل عادةً إلا على المضارع المنهيّ عنه:

﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]

- (حتى) تتخلّى عن عطفيتها فلا يقع بعدها إلا فعلٌ أو ظرفٌ أو اسمٌ للزمان:

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣]

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبُوا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف: ٧١]

- الأفعال الناقصة (ما برح) و (ما فتى) و (صار) و (أمسى) و (بات) لا تقع  
في القرآن إلا تامّة:

﴿لَا أَبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الكهف: ٦٠]

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُونَ تَدَكَّرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥]

﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٥٣]

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]

- الأداة (إن) تتخلى عن شرطيتها، لتصبح حرفاً زائداً للتوكيد:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]

- الأداة المشبهة بالفعل (إن) تتجاوز حرفيتها، ونفقد خبرها، لتصبح بمعنى الفعل (أنذر) أو (سأعاقب):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتَبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]

ج- الاستعمالات الجديدة للأدوات في سورة فاطر:

وفي هذه السورة من الاستعمالات القرآنية الجديدة للأدوات ما لا يقل عن أربع عشرة حالة تأتي تحت أربع أدوات:

- استخدام (اللام) ٤ مرّات بمعنى لا تعرفه لغتنا البشرية وهو قريب من (جزاء) أو (عقاب):

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (أي جزاؤهم أو ينالهم) [٧ + ١٠]

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (أي جزاؤهم) [٧]

﴿لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ﴾ (أي عقابهم) [٣٦]

- زيادة أداة النفي (لا) ٣ مرّات بين المتعاطفين، رغم وجود فعل الاستواء قبلهما ممّا يستدعي حذفها تبعاً لأعرافنا اللغوية:

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمُ وَلَا  
الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي  
الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [١٩ - ٢٢]

- استخدام (إن) بمعنى (ما) النافية، وقد أثبتنا في تحليلنا لسورة (المدثر)،  
في الجزء الأوّل من البحث، أنّ هذا الاستعمال اقتصر على القرآن الكريم  
دون الشعر العربيّ، ودون الحديث الشريف أيضاً. ويتكرّر هذا الاستخدام  
في السورة أربع مرّات:

﴿ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [٢٣]

﴿ وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [٢٤]

﴿ بَلْ إِن يَدُعُّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [٤٠]

﴿ وَلَئِن زَالَا إِنَّ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴿٤١﴾ ﴾ [٤١]

- استغراق (كان) للزمن الماضي والحاضر والمستقبل بدلاً من انحصارها  
في الزمن الماضي. ويتكرّر هذا الاستعمال الجديد والخاصّ بالقرآن  
وحده ثلاث مرّات في السورة:

﴿ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ، مِنْ شَيْءٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [٤٤]

﴿ إِنَّهُ، كَانَتْ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [٤٤]

﴿ فَإِنِ كَانَتْ اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ، بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [٤٥]

## ٢- التراكيب والتعبيرات:

عرفنا أن لغة القرآن الكريم مشحونة بما لم يعرفه العرب قبل الإسلام من تراكيب لغوية جديدة (ونقصد بها تلك الصيغ اللغوية القصيرة التي يقوم بناؤها بشكل أساسي على الأدوات أكثر منه على الأسماء أو الأفعال). وهي مشحونة كذلك بالتعبيرات الجديدة (ونقصد بها الصيغ القصيرة التي تقوم على الأسماء أو الأفعال خاصة، وربما اكتمل تركيبها فشكّلت جملة كاملة).

ويصعب إحصاء العدد الهائل من التركيبات والتعبيرات الجديدة التي يحفل بها القرآن الكريم.

### أ- التراكيب الجديدة:

وهذه بعض التراكيب الجديدة في سورة (فاطر) والتي لم يعرفها العرب قبل القرآن الكريم، وعجزوا عن استخدامها بعد القرآن:

فلا مُمَسِّكَ لها - فلا مُرْسِلَ له - مِن بَعْدِهِ - إِلَّا بَعْلِمِهِ - إِلَّا فِي كِتَابٍ - له الْمُلْكُ - مِن دُونِهِ - وما ذلِكَ على اللَّهِ - إِنَّمَا تُنذِرُ - إِن أَنْتَ إِلَّا - وَإِنْ مِن أُمَّةٍ إِلَّا - فكيف كان (نكير) - أَلَمْ تَرَ أَنَّ - لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ - يُحَلِّونَ فِيهَا مِن (أساور) - كذلك نَجْزِي - بلْ إِنْ يَعْذُبِ (الظالمون) - فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا - أَوْلَمْ يَسِيرُوا - وما كان اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ.

### ب- التعبيرات الجديدة:

ومن التعبيرات الجديدة في السورة، والتي ظل استعمال معظمها مقتصرًا على القرآن الكريم حتى الآن:

مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ - هل مِن خَالِقٍ غَيْرِ (الله) - فَأَنْتَى تُؤَفِّكونَ - أصحاب السعير - عملوا الصالحات - بلدٍ مِيَّتٍ - فله العزَّةُ جميعاً - الكَلِمُ الطَّيِّبُ -

يَمَكُرُونَ السَّيِّئَاتِ - عَذِبٌ فُرَاتٌ - مِلْحٌ أُجَاجٌ - لِأَجَلٍ مَّسْمُومٍ - ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ  
- غَرَابِيبُ سُودٌ - سِرًّا وَعَلَانِيَةً - سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ - جَنَّاتٌ عَدْنٌ - دَارُ الْمُقَامَةِ  
- السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ - ذَاتِ الصُّدُورِ - خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ - جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ -  
استكباراً فِي الْأَرْضِ - مَكْرَ السَّيِّئِ - سُنَّةَ الْأُولِينَ - جَاءَ أَجْلُهُمْ.

### ٣- العلاقات اللغوية الجديدة:

تُحَقِّقُ الألفاظ والعبارات والجمل القرآنية في تجاورها بعضها مع بعض  
علاقاتٍ جديدةً متميِّزةً تختلف في كثيرٍ منها عن العلاقات اللغوية التقليدية التي  
عرفها العرب قبل ذلك، بل يختلف كثيرٌ منها عن العلاقات التي يعرفها قاموسنا  
التعبيريّ نحن العرب المتأخّرين، وقد عبرنا لتوّنا حدود القرن الحادي والعشرين.

#### أ- بين الألفاظ:

فقد تتجاوز في القرآن ألفاظٌ لم نعتد تجاورها، فتحرّك في نفوسنا بهذا  
التجاوز أبعاداً خياليّةً وفكريّةً جديدةً، وتصل إلى زوايا عميقة لا تحركها أو تصل  
إليها العلاقات التقليدية المستهلكة في تراثنا اللغويّ.

وبإمكانكم أن تتوقّفوا عند كلّ متجاورين، أو أكثر، من الألفاظ التالية،  
وتتمعّنوا في العلاقة التي تربط اللفظ في هذه الأزواج بما قبله أو بما بعده،  
وتقارنوها بالعلاقات التي اعتدتموها بين الألفاظ في لغتنا العادية، لتبيّنوا طبيعة  
هذه "العلاقات الجديدة" التي نتحدّث عنها والتي أحدثت في نفس العربيّ الأول  
تلك "الصدمة اللغويّة" الفاتكة.

ليحاول أحدنا أولاً أن يقف بين اللفظة وتاليّتها في كلّ من الأزواج التعبيريّة  
البشريّة التالية، ثمّ ليسأل نفسه: لو حدث أنّي عشت في العصر الجاهليّ فهل كنت  
سأجد توالي مثل هاتين الكلمتين أمراً عادياً حقّاً؟ لنقرأ:

- |                             |                          |
|-----------------------------|--------------------------|
| - صانعُ السماء (أو السموات) | - تصميم (أشكال) الملائكة |
| - فتحُ الرحمة               | - رزقُ السيّد            |

- |                               |                           |
|-------------------------------|---------------------------|
| - إعادة الأحكام               | - الحياة فوق/ تحت         |
| - إذهابُ النفس                | - بناء الغيوم             |
| - تعادلُ البحرين              | - انزلاق الليل/ النهار    |
| - ترويض الشمس                 | - الإنكار للشركة/ الشراكة |
| - إذهاب الناس                 | - يُثقلُ ثاقلاً           |
| - المبشّر المنذر (معاً)       | - أخذُ البشر              |
| - شديدُ السوادِ أسودُ         | - يغفر ويشكر (معاً)       |
| - توريث عهدٍ                  | - مخبوءات السماء/ الأرض   |
| - صاحبة العقول                | - شركة سماوية             |
| - حَمَلُ السماء/ حَمَلُ الأرض | - خديعة السيئة..          |

إنّنا، في هذه الأمثلة، لم نتجاوز أن وضعنا عدداً من العبارات القرآنية في سورة (فاطر)، ومن غير أن نغيّر طبيعة العلاقات بين ألفاظها، في صورةٍ لفظيةٍ بشريةٍ شارحةٍ تجعلها أقرب إلى أفهامنا، وتساعدنا على فهم طبيعة تلك العلاقات الجديدة التي نجدها بين ألفاظ السورة. وهذه هي أصول العبارات القرآنية الأربع والعشرين:

- |                                  |                          |
|----------------------------------|--------------------------|
| - فاطر السموات                   | - جاعلِ الملائكةِ        |
| - ما يفتحُ الله (للناس) من رحمةٍ | - نعمة الله              |
| - تُرجعُ الأمور                  | - الحياة الدنيا          |
| - فلا تذهبُ نفسك                 | - فُشِّرُ سحاباً         |
| - وما يستوي البحران              | - يولجُ الليل/ النهار في |
| - سَخَّرَ الشمسَ                 | - يكفرون بشرككم          |

- يُذْهِبْكُمْ - تَزُرُّ وَاذِرَةٌ  
 - بشيراً ونذيراً - أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
 - غرَابِيبُ سُودٍ (والغريب: شديد السواد) - عَفَوْرٌ شَكُورٌ  
 - أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ - غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 - ذَاتِ الصُّدُورِ - شِرْكَ فِي السَّمَاوَاتِ  
 - يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ - مَكْرَ السَّيِّءِ
- ب- بين الجمل:

ولم تقتصر جدّة العلاقات اللغويّة على الألفاظ وحدها، بل تجاوزتها إلى العلاقات بين الجمل أيضاً، كما عرفنا؛ إذ حلّت الآية محلّ الجملة، لتصبح هي الوحدة اللغوية الخاصّة بالقرآن:

- فالآية الواحدة قد تستغرق عدّة جملٍ منفصلة، وقد لا يكون بين بعض هذه الجمل أيّ رابطٍ نحويّ أو معنويّ ظاهرٍ من روابطنا التقليديّة المعروفة. إنّ الجمل الكاملة الأربع التالية، التي قد تتضمّن في داخلها أيضاً جملاً فرعيّةً أخرى أصغر منها، تكون جميعاً آيةً واحدة:

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا نَذْهَبُ نَفْسًا عَلَيْهِمْ حِسْرَتٍ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [٨]

- وعلى العكس، قد تستغرق الجملة الواحدة عدّة آياتٍ منفصلة، فليست الآيات المتوالية الثلاث التالية إلا جملةً واحدةً مؤلّفةً من فعلٍ وفاعل، ومن خمسة أسماءٍ معطوفةٍ على هذا الفاعل:

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾ [١٩ - ٢١].

- وإمعاناً في الخروج عن الوحدة اللغوية التقليدية؛ كثيراً ما تختفي الروابط المعتادة بين الجمل (كالواو والفاء) فلا نجدتها في مواضعها المعهودة ضمن الآية الواحدة، كما حدث في الآية التالية التي تألفت من أربع وربما خمس جمل كاملة، ولكن لم يربط بين الثلاث أو الأربع الأول منها فاءً أو واؤ ولا غيرهما:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعَمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْفُتُّوْكُمْ﴾ [٣].

#### ٤- الخروج عن الأعراف النحوية واللغوية:

لا بد أن نؤكد دائماً أن هناك فرقاً بين الخروج عن القواعد والخروج عن الأعراف.

فالقرآن الكريم أسس للقواعد اللغوية والنحوية وكرسها، فحولها من مجرد أعراف وتقاليد متداولة بين العرب، وقابلة للتغيير والتعديل في كثير منها، إلى قوانين وأحكام ثابتة يُستند إليها في الحكم على سلامة أي نص أدبي أتى بعد القرآن، أو قبله، هذا حتى إن لم يلتزم اللغويون والنحويون والبلاغيون حرفياً بعد ذلك، وهم يجدون أنفسهم أمام لغة استحالت على التقليد أو الاختراق، بجميع التقاليد الجديدة التي سنّها القرآن لعلومهم، والتي أصبحت بفضلها علوماً حقيقية لأول مرة.

لم يكن هناك إذن قبل الوحي ما يمكن تسميته بقاعدة، فلا علوم لغة أو نحو أو بلاغة كانت قد وُضعت بعد. لقد جاء القرآن ليطوّر اللغة العربية ويغنيها ويفتح أمامها آفاقاً هائلةً للتجدد والاتساع، وذلك من خلال الخروج عن أعرافها وتقاليدها بكثافة غير عادية وخلال فترة قياسية.

وإذا كان النحويون واللغويون والبلاغيون القدماء أبوا إلا أن يخضعوا لغة القرآن الكريم لقواعدهم الجديدة، رغم أن القرآن هو الذي دفعهم، أولاً وأخيراً، إلى وضع تلك القواعد، فإنّ عدداً من متنوّريهم، ولا سيّما المحدثون منهم، قد

اعترفوا بعدم خضوع لغة القرآن الكريم دائماً لقواعدنا البشرية المحدودة، وهي التي عجز واضعوها عن استيعاب سعة الآفاق اللغوية القرآنية، وعن إخضاعها لمقاييسهم، وحشرها في أنابيب قواعدهم الإنسانية الضيقة. ولنا فيما كتبه مصطفى صادق الرافعي، وعبد الخالق عزيمة، وأحمد مكّي الأنصاري، وغيرهم من أهل عصرنا، خير شاهدٍ على هذه الحقيقة كما أثبتنا في الجزء الأوّل من هذا البحث.

ومن الواضح أنّ العرب قد عجزوا حتّى اليوم عن الإفادة من معظم الآفاق النحوية واللغوية والبلاغية القرآنية الجديدة، بل، ومن الإنصاف لهم أن نقولها، إنّه قد استحال عليهم ذلك حتّى إن أرادهم بعضهم أو حاولوه.

وقد سبق أن مثلنا في الجزء الأوّل بمائة حالة نحوية تجاوز بها القرآن الكريم أعراف العرب وتقاليدهم. ونستطيع أن نعثر في سورة (فاطر) على سبع حالاتٍ نحويةٍ جديدةٍ على الأقلّ ليست كلّها بالضرورة من تلك المائة التي سبق أن استشهدنا بها، وهي:

- الاكتفاء بالمبتدأ دون الخبر، وذلك في غير الحالات التي سمح فيها النحويون بحذف الخبر:

﴿ أَفَنَرِيكَ لَهٗ سُوٓءَ عَمَلِهِۦۗ فَرَّاهُ حَسَنًاۚ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُۗ ﴾ [٨].

- الاكتفاء بالفعل والفاعل دون المفعول به، في غير المواضع التقليدية التي يُحذف فيها المفعول عادةً:

﴿ فَذُوقُوا [العذاب] فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [٣٧].

- الاكتفاء بالمقول دون أن يُذكر قبله فعل القول التقليدي:

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا [قائلين] رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [٣٧].

- حذف ياء المتكلم كتابةً ولفظاً، خلافاً للأعراف اللغوية التي لا تسمح بحذفها، لا لفظاً ولا كتابةً:

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرِ ﴿٣٦﴾ ﴾ (أي نكيري عليهم) [٢٦].

- الابتداء بالمفعول ورفعته على أنه مبتدأ أو خبر، رغم وجود المفعول بعد ذلك في شكل ضمير للغائب:

﴿ جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ [٣٣].

- تعريف المفعول لأجله (أو ما يُعطف عليه)، وذلك بإضافته إلى معرفة، ومن شروطه عند النحويين أن يكون نكرة:

﴿ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ (أي ومكراً للسيئ) [٤٣].

- إعمال الفعل عمل فعلٍ آخر:

﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ ﴾ [أي يرتكبون] السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُؤْوَرُ ﴾ [١٠].

## ٥- السبائك القرآنية:

لقد عرضنا في الجزء الأول من البحث عيّنات عديدة من القوالب أو "السبائك" اللغوية التي حكمت الأدب العربي، شعره ونثره، فالتزم بها الشعراء والخطباء، وتناقلوها في إبداعاتهم المختلفة. فكم من بيت في تراثنا العربي يبدأ بمثل هذه السبائك التي تتكرر في أشعارنا القديمة، وأحياناً الحديثة، مرّة إثر مرّة: وَمَنْ يَكُ ذَا..

ألا ليت شعري هل..

ألا انعم صباحاً أيها الربع..

ولا عيب فيهم غير..

خليليّ مرّا بي..

أمن آل أسماء الطلول الدوارس..

يا صاحبي تَلَوَّما..

ودَّعُ أُمَامَةً..

أهاجَكَ مِنْ أَسْمَاءَ رَسْمِ الْمَنَازِلِ..

أَمِنْ ذِكْرِ سَلْمَى..

لِمَنْ طَلَّلَ بَيْنَ الْجَدِيدَةِ..

ألا أَيُّهَذَا اللَّائِمِي..

وإذا وردت سبيكة لغوية عند شاعر جاهلي كالمرقش الأكبر (ت ٧٢ ق.هـ) مثل (أم أنت غالب) هكذا بحرف العطف (أم) يتلوه الضمير المنفصل (أنت) ثم اسم فاعل على وزن (فاعل) وذلك في قوله:

أغالبُكَ القلبُ اللجوجُ صباةً      وشوقاً إلى أسماء، أم أنت غالبُهُ

فسوف تجد السبيكة نفسها تُتناقل بعده من شاعر إلى شاعر، وبشكل حرفي عجيب، حتى لتحافظ السبيكة على وزن اسم الفاعل كما هو عند المرقش فلا يأتي فيها إلا على وزن (فاعل)، كقول الشعراء الآخرين بعده، من جاهليين وإسلاميين:

أَتُبَكِّرُ رَسْمَ الدارِ أَمْ أَنْتَ عَارِفُ      أَلَا، بَلِ العِرفانُ، فالدمعُ ذارِفُ

هُدبَةُ بنِ الخَشْرَمِ (ت ٥٠ ق.هـ)

أَتُبَكِّرُ أَمْ أَنْتَ العِشِيَّةُ رائِحُ      وفي الصدرِ مِنْ إِضْمَارِكِ الحُزْنَ قَادِحُ

وَرَقَةُ بنِ نوفَلِ (ت ١١ ق.هـ)

هَلْ أَنْتَ مُحَيِّي الرِّبْعِ أَمْ أَنْتَ سائِلُهُ      بَحِيثُ أَحَالَتِ فِي الرِّكَاةِ سِوائِلُهُ

تَمِيمُ بنِ أَبِي بنِ مَقْبَلِ (ت ٣٧ هـ)

وجاء القرآن ليقلب كل هذه السبائك التقليدية رأساً على عقب، وليوجد سبائكه الخاصة ذات البناء المتميز الذي أثبتنا أنه يكاد يشمل كل آية من آيات القرآن الكريم، مع استحالة تقليد سبائكه رغم ذلك.

ومن السهل على كل منا أن يتأكد من هذه الاستحالة لو حاول أن يختار آية ما، بشكل عشوائي، ثم حاول استبدال كلماتها بكلمات من عنده، ليكتشف في النهاية أنه سيحصل على جملة لا تثير أكثر من السخرية، أو على الأقل، يكتشف من يسمعه أن قائل هذه الجملة ما فعل أكثر من أن ألبس كلماته البشرية سبيكة قرآنية غير بشرية، فظهر في جملته التمزق والتنافر والشذوذ، وهذا يشبه ما يمكن أن يثيره في نفسك منظر قطعة ألبسوها بنظراً وسترة ونظارات وربطة عنق؟ فلا عيب في القطعة، ولا عيب في الألبسة، وإنما العيب هنا في اجتماعهما.

ولن نستشهد هنا طبعاً بكل السبائك اللغوية الجديدة في سورة (فاطر) فكل سبائكها جديدة، شأن سائر سور القرآن الكريم. وحسبنا الاستشهاد بسبائك الآيات الثلاث الأولى منها، وسنجد في هذه الآيات ما لا يقل عن ست من السبائك الجديدة التي لا توازيها آية سبيكة من سبائك لغتنا، الرسمية المكتوبة أو اليومية المحكية، ويعجز أي منا اليوم عن صياغة جملة بشرية توازيها في بنائها اللغوي والنحوي من غير أن يثير السخرية، حتى إن اكتفى باستبدال كلماتها بكلمات جديدة من عنده، من غير أن يمس بناءها النحوي أو تشكيلها اللغوي.

ولنجرب مع السبيكة الأولى في هذه الآيات الثلاث:

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْلِ وَرَبِّعٍ ﴿١﴾﴾ [١].

هل تتوقع أن تصوغ جملة توازي هذه الآية الأولى، من غير أن تثير سخرية الناس منك، كأن تقول مثلاً: التعظيم للفنان راسم الخرائط واللوحه مانح الأشياء شخصيات أولي أنواع لونين وثلاثة وأربعة!

هذا مع اضطرارنا إلى إحلال الألفاظ التقليديّة المعروفة (لوتين وثلاثة وأربعة) محلّ الألفاظ القرآنيّة الجديدة والمتفردة ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعًا﴾ التي لم تكن معروفة لدى الإنسان العربيّ الجاهليّ.

ولكم الآن أن تجرّبوا مهاراتكم البشريّة مع السبائك الخمس التي تليها في الآيات الثلاث، بل مع أيّ من السبائك القرآنيّة المتميّزة في هذه السورة، كما في باقي سور القرآن الكريم:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١]

- ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [٢]

- ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَدْرُؤًا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [٣]

- ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [٣]

- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذَنُ تُؤَفَّكُونَ﴾ [٣]

وقد تبدو السبيكة الأولى التي تصدّرت هذه السبائك الخمس جملةً عاديّةً لا تختلف عن سبائكن اللغويّة المتداولة، وقد يجرب أحدكم فيضع من عنده جملةً بشريّةً موازيّةً لها فيقول، معارضاً لنا فيما ندّعيه:

إنّ الحكومة على كلّ شيءٍ قديرةٌ

ولكن سيّبين له، ولأيّ قارئٍ عاديّ، أنّ جملته ليست من تعبيراتنا البشريّة التي اعتدنا أن نعبر بها عن مثل هذا المعنى. إنّ من يسمعها لا يشكّ في أنّ القائل قد خرج عن النسق البشريّ لسبائكن اللغويّة المعروفة، فأتى بكلماتٍ بشريّةٍ معتادة، ولكن في صياغةٍ أو بناءٍ لغويّ قرآنيّ غير معتاد، وباستخدام لفظٍ غير معتادٍ أيضاً في مثل هذا السياق وهو اللفظ ﴿قَدِيرٌ﴾، وإلاّ كان عليه أن يقول:

إنّ الحكومة قادرةٌ على كلّ شيءٍ

مستخدماً اللفظ (قادرة) بدلاً من (قديرة) ومقدماً له على شبه الجملة (على كل شيء) المتعلق بهذا اللفظ.

## ثانياً: البعد البلاغيّ

### ١- أبعادٌ جديدةٌ للصورة:

لم يعد التمثيل البيانيّ في القرآن مقيداً بتلك الصور المحدودة والمتكررة عند الشعراء العرب، وقد قدّمنا في الجزء الأول نماذج من تلك الصور التي تناقلتها السنة الشعراء والأدباء، بحيث قلّ أن خرج عنها أحدٌ بعد ذلك. فنحن لا نكاد نرى عند المتأخرين إلاّ صياغةً جديدةً لصور المتقدمين، أو إضافاً ألوانٍ مختلفة، أو نسج أثوابٍ جديدة، ولكن على صورٍ قديمةٍ استهلكها النسخ والتقليد.

ويأتي القرآن ليحمل إلى العرب، مرّةً واحدة، خزناً كبيراً منوعاً من الصور التي لم يسمعوا بها أبداً من قبل، ومهملاً في الوقت نفسه كلّ الصور التي عرفوها قبل القرآن.

إنّ في سورة (فاطر) وحدها أكثر من ستين صورةً جديدةً، كما سوف نرى، والأعجب من ذلك أنّنا، مع هذا الكمّ الكبير من الصورة الأساسية الجديدة، فضلاً عن الفرعية، التي اجتمعت في سورة من ستّ صفحات، لا نكاد نرى، بل أجرؤ على القول إنّنا لا نرى أبداً، صورةً أساسيةً قديمةً واحدةً من تلك التي عرفها العرب قبل نزول القرآن الكريم، والتي ازدحمت بها قصائدهم وأعمالهم الأدبية المختلفة. وينطبق هذا الحكم على سائر سور القرآن الكريم.

وليس هذا فحسب، بل أوجد القرآن الكريم أبعاداً غير مسبوقه بين أطراف الصورة كثيراً ما عجزت أقلام البلاغيين، وهم ينهدون فيما بعد لوضع قواعد علم البيان، عن الغوص فيها وتحليلها، ثم إخضاعها لقواعدهم البيانية البشرية المحدودة.

وسيوافه من درسوا علوم البلاغة العربية صعوبةً كبيرة، إذا لم أقل استحالة، في تحليل كثير من الصور البيانية التي وقفنا عليها في سورة (فاطر) إذا اكتفوا بالاعتماد على قواعد تلك العلوم، كما يتضح من الصور التالية، وسنشير بخط تحت كل صورة، مع ملاحظة اجتماع أكثر من صورة واحدة في العبارة أو الآية أحياناً:

- ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [١]
- ﴿ وَلَا يُغْنِيكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [٥]
- ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [٦]
- ﴿ أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثَبَّثُوا سَفَاكًا ﴾ [٩]
- ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [١٠]
- ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [١٠]
- ﴿ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [١٣]
- ﴿ مَخْشُورًا رَمِيمًا بِالْغَيْبِ ﴾ [١٨]
- ﴿ وَمَا بَسْتَوَى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرَ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورَ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمُ وَلَا الْحُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا بَسْتَوَى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ [١٩ - ٢٢]
- ﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [٣٦]
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ [٤١]

## ٢- صورٌ جديدة:

أما الصور القرآنية التي نستطيع دراستها تبعاً لقواعدنا البلاغية فإننا سنكتشف بهذه الدراسة أننا على أقل تقدير، أمام صور جديدة لم يعهدها قاموس البلاغة العربية قبل ذلك، ثم لن يعرف كثيراً منها بعد ذلك، كما يتبين لنا في الصور التالية:

- ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ ﴾ [٢]
- ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [٢]
- ﴿ وَمَا يُمْسِكُ فَلَا يُرْسِلُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [٢]
- ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [٤]
- ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [٥]
- ﴿ زَيْنٌ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ [٨]
- ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [٨]
- ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [٨]
- ﴿ وَهَذَا مِطْحُ أُجَاحٌ ﴾ [١٢]
- ﴿ فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ﴾ [٨]
- ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [٩]
- ﴿ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْذَرُ ﴾ [١٠]
- ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [١٨]
- ﴿ وَإِنْ نَدَعُ مُثْقَلَهُ إِلَى جِوَاهِرِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ [١٨]
- ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ [١٨]
- ﴿ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ [١٨]
- ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ [٢٥]
- ﴿ يَرْجُونَ تَحْرِيرَ لَنْ تَكُونَ ﴾ [٢٩]
- ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [٣١]
- ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ [٣٥]

- ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [٣٥]
- ﴿لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ﴾ [٣٦]
- ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [٣٧]
- ﴿إِنَّهُ، عَلَيْهِمُ بِنَاتِ الصُّدُورِ﴾ [٣٨]
- ﴿جَعَلَكُمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ﴾ [٣٩]
- ﴿فَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ [٣٩]
- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [٤٢]
- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [٤٢]
- ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [٤٣]
- ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ [٤٣]
- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ [٤٥]
- ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابْتَرٍ﴾ [٤٥]

### ٣- فنّ الالتفات:

عرفنا في الجزء الأول من البحث أنّ هذا الفنّ البلاغيّ الجديد فنّ محض قرآنيّ، وأنّ ما أورده علماء البلاغة في كتاباتهم من نماذج شعريّة عليه لا تمتّ إلى هذا الفنّ بصلّة، وإنّما هي نوعٌ من الإسقاط يتحدّث فيه الشاعر عن نفسه، حيناً بصيغة المتكلّم وحيناً بصيغة الغائب، شأن أيّ منّا حين يتحدّث إلى نفسه وكأنّه شخصيتان تحاور إحداهما الأخرى. هذا ما كان يفعله، مثلاً، امرؤ القيس (ت ٨٠ ق.هـ) حين قال:

طحا بك قلب في الحسان طروب      بُعيد الشباب عصر حان مشيب  
يكلّفني ليلي وقد شطّ وليها      وعادت عوادٍ بيننا وخطوب

فانتقل من صيغة المخاطب (بك) إلى صيغة المتكلم (يكلّفني) رغم أنه عنى نفسه في كلتا الحالين، إنه يجرد من نفسه شخصيةً أخرى يتحدث إليها وتحدّث إليه، ومن المهمّ جدًّا التفريق، وبشكلٍ علميٍّ وحازم، بين التجريد والالتفات.

وقد عرفنا كذلك أنّ لهذا الفنّ في القرآن أنواعاً عديدةً، كلّها جديد، وكلّها يقتصر على القرآن وحده، فلا وجود للالتفات في أدبنا، شعره أو نثره، حتّى يومنا هذا، بل لا وجود له حتّى في الحديث الشريف، وأذهب إلى أبعد من هذا بقولي إنّي لا أعرف، ولا أتوقّع أن أجد هذا الفنّ، في آيةٍ لغةٍ أخرى.

وفي سورة (فاطر) من أنواع الالتفات التي درسناها في الجزء الأوّل أربعةً على الأقلّ:

#### أ- التفات الزمن:

في هذا النوع من الالتفات ينتقل الحديث بصورةٍ فجائيةٍ وغير مألوفةٍ بين الماضي والمضارع، أو العكس، وكذلك بينهما وبين الزمن الحاضر. ونجد هذا النوع من الالتفات سبع مرّاتٍ في الآيات الخمس التالية من السورة، وقد أشرنا إلى مواقعها فيها بخطوطٍ تحتها:

- ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [٩] (انتقل من الماضي إلى المضارع، ثم من المضارع إلى الماضي).

- ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [١٣] (انتقل من المضارع إلى الماضي).

- ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [١٨] (انتقل من المضارع إلى الماضي).

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ [٢٩] (انتقل من المضارع إلى الماضي).

- ﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [٣٣] وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿ [٣٣ - ٣٤] (انتقل من المضارع "يدخلونها" إلى الحاضر "يحلون" ثم إلى الماضي "قالوا").

### ب- التفات الخطاب:

وفي التفات الخطاب يتنقل الحديث بين صيغ المتكلم/ المتكلمين، والمخاطب/ المخاطبين، والغائب/ الغائبين، رغم أن المتحدث أو المتحدث عنه هو نفسه لم يتغير، أو ربما انتقل الحديث فجأة، ودون تمهيد، بين متكلم وآخر، أو بين المبني للمجهول والمبني للمعلوم، أو غير ذلك مما يدخل في هذا الباب أو هو قريب منه. وفي سورة (فاطر) ما لا يقل عن خمس حالات من هذا النوع، نجدها في الآيات التالية:

- ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ [٩] (انتقل من المفرد الغائب "أرسل" هو، إلى جمع المتكلمين "سقناه" نحن)

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ [٢٧] (انتقل من المفرد الغائب "أنزل" هو، إلى جمع المتكلمين "أخرجنا" نحن)

- ﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ [٣٣] (انتقل من المبني للمعلوم "يدخلونها" إلى المبني للمجهول "يحلون")

- ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ ﴾ [٣٧] (انتقل الحديث، وبدون تمهيد، من لسان أهل النار "ربنا أخرجنا" إلى الله تعالى "أولم نعمركم")

- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ لَهُنَّ كُنُوزٌ ﴾ [٤٠] (انتقل من صيغة الأمر الصادر من المفرد المتكلم

"أروني" أنا، ويمكن أن يعود على الرسول ﷺ أو على الله تعالى، إلى صيغة الإخبار الصادر عن جمع المتكلمين "آتيناهم" نحن، والعائد عليه تعالى).

إن هذه الأنواع من الالتفات لا يمكن أن نعثر عليها في لغتنا البشرية. هل يتوقع أحدنا مثلاً أن يقرأ لكتابٍ أو يسمع لمتحدث، من غير أن يقطب حاجبيه مستغرباً ومستنكراً، عبارةً كالعبارة التالية، والتي صغتها على نمط الآية الأولى من الشواهد القرآنية أعلاه:

والحكومة التي أصدرت القرارات فتشطُّ التجارة فطبقتها على بلدٍ فقير؟

### ت- التفات الجنس:

أتينا في الجزء الأول بشواهد قرآنية عدّة على هذا النوع من الالتفات الذي يتبادل فيه المذكر والمؤنث مواقعهما، خلافاً لكل تقاليدنا أو أعرافنا اللغوية والنحوية. ولم يقصر النحويون طبعاً في إيجاد الحلول أو التقديرات لمثل هذه "الإرباكات" اللغوية أو النحوية التي وضعهم القرآن أمامها، من غير أن يدرك أكثرهم، أو أن يعترفوا للأسف، بأنهم أمام نوع جديد من البلاغة التي تشدّ القارئ إليها باستمرار من خلال التغيّر المفاجئ للإشارة المرور اللغوية، أو عبر القفزة الخاطفة وغير المتوقعة في تيار المجرى التعبيري.

ونجد من هذا النوع من الالتفات في سورة (فاطر) أربع حالاتٍ اجتمعت كلها في آيتين متتاليتين، وهي قوله تعالى:

- ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا [مختلفة] أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ [مختلفة] أَلْوَانُهَا وَعَرِيلٌ سَوْدٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ [مختلفة] أَلْوَانُهُ، [ألوانها] كَذَلِكَ ﴾ [٢٧ - ٢٨].

### ث- التفات النصب:

وهو كثيرٌ جداً في القرآن، كما أثبتنا في الجزء الأول، وهو أيضاً ممّا أجهد النحويّون أنفسهم في البحث عن تأويلاتٍ وتقديراتٍ لآياته، غير ملتفتين إلى الجانب التجديديّ الهامّ والخصب الذي يقدّمه لأعرافنا النحويّة، وإلى عنصر التحوّل الإيقاعيّ في مجرى اللغة، والذي من شأنه أن يشدّ إليه قارئ القرآن الكريم، فضلاً عن الإضافة المعنويّة المتميّزة والخاصّة التي يبتعثها في السياق. ونجد هذا العنصر الالتفاتيّ في الآية التالية من السورة:

- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [٣٦].<sup>(١)</sup>

ولا شكّ أنّ مثل هذه الأعراف، وربّما القواعد فيما بعد، التي سنّها القرآن لأوّل مرّة، والتي ظلّت في معظمها بعيدةً عن متناول النحويّين حين وضعوا قواعدهم، لا تلغي القواعد التي كانت قائمةً قبلها، والتي لم تكن كما أسلفنا قد اكتسبت هذا الاسم بعد حين نزل الوحي، بل تضيف إليها وتغنيها وتمنح لغتنا المزيد من القدرة على الاستمرار والتطور، وإن كان للغة السماء خصوصيّتها التي "أعجزت" النحويّين عن إيجاد قواعد نهائيّة لها، والإمساك بكلّ دقائقها وأسرارها، فانصرفوا عنها إلى لغة الشعر الجاهليّ، العاديّة والبشريّة، ليستمدّوا قواعدهم النهائيّة منه.

### ٤- اللغة المنفتحة:

سبق أن أثبتنا أنّ هذا الأسلوب التعبيريّ لم يعرفه العرب قبل القرآن الكريم. فهذا النوع من اللغة وراء كثيرٍ من عناصر المرونة في الشريعة الإسلاميّة، واستمرار مواكبتها للحياة وتطورها، وخروج الفقهاء بأكثر من رأيٍ أو اجتهادٍ في القضايا اليوميّة المستجدّة على مدى العصور. وإلى هذا النوع من اللغة أيضاً يرجع الفضل

(١) قارن بين نصب الفعل هنا ورفعها في آياتٍ أخرى مماثلة لهذه الآية، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦].

في استمرار بذور الإعجاز العلمي للقرآن خبيثةً حيّةً في لغته على مرّ القرون، بانتظار العصر الذي سيزيل عنها ستار الغموض، وهكذا فهمها كلّ عصرٍ على قدر ما أوصلته إليه معارفه، حتّى انتهينا اليوم إلى هذا الانفجار العلميّ الهائل، وقد خرج علينا فيه العلماء باكتشافاتهم المذهلة، لتُظهر المعاني الحقيقيّة لكثيرٍ من الآيات التي عجز القدماء عن فكّ ألغازها وحلّ رموزها.

إنّ كلّ الألفاظ التي يمكن أن تحمل أكثر من معنى، وكلّ التعبيرات أو الجمل أو الآيات التي اختلف الفقهاء أو المفسرون عليها، وذهبوا مذاهب شتى في تأويلها، تدخل تحت باب اللغة المفتحة. إنّها ليست منغلقةً على معنى واحدٍ أو تفسير نهائيّ لا يقبل الجدل، وهنا مكمّن قوتها وتميّزها، كما أنّ اجتماعها وتنوعها وكثرتها في كلّ سورةٍ تُبرز خصيصةً الإعجازيّة المتفردة.

ونستطيع أن نجد في سورة (فاطر) العديد من الألفاظ والعبارات والجمل المفتحة التي يمكن أن تُفهم بأكثر من طريقةٍ واحدة، وسنشير فيما يلي إلى أبرزها:

#### أ- الألفاظ المفتحة:

وهي كلّ ما احتمل أكثر من معنىٍ من الألفاظ، وكلّما كثرت معانيها المقترحة، أو زادت أطرافها الموحية، أو تعدّدت طرائق إعرابها، ازدادت استحقاتاً لصفاتها الانفتاحيّة. ونجد منها في السورة:

فاطر - تُؤفكون - العرور - حزبه - تُثير (سحاباً) - النشور - يبور - (في) كتاب - قطمير - بالغيب - تزكى - نكير - جدّد - العلماء - مقتصد - عدن - المُقامة - لغوب - يصطرخون - (وجاءكم) النذير - خلاّف - مَقْتاً - ينظرون (إلاّ)

هذه الألفاظ قابلةٌ للتأويل بأكثر من معنى، وهذا سرّ جدّتها وتفسير الصدمة التي أحدثتها طبيعتها الجديدة في نفوس من سمعوها لأول مرّة. ولو أخذت أيّ لفظٍ منها وبحثت عن آراء المفسرين فيه، وتأويلاتهم له، لوجدتهم ذهبوا في ذلك مذاهب شتى.

لقد قالوا في اللفظ (نذير) مثلاً:

إنه الرسول ﷺ

وقالوا إنه (الشيب) الذي ينذر باقتراب الأجل.

وقالوا بل هو القرآن

وقالوا بل هو موت الأهل والأحباب

أو هو كمال العقل

أو هو البلوغ

أو هو (الحُمى) لأنها رسول الموت..

وهكذا تعددت التفسيرات لهذا اللفظ مثلما تعددت لبقية الألفاظ، كما يمكن للقارئ أن يتبين في مراجعة سريعة لأي تفسيرٍ موسّعٍ من التفاسير القرآنية العديدة.

#### ب- التعبيرات المنفتحة:

قد يتجاوز عنصرُ الانفتاح اللفظة الواحدة، ليشمل عباراتٍ كاملةً ارتبطت ألفاظها فيما بينها بعلاقاتٍ غير تقليديةٍ وغير محددة العرى النحوية أو اللغوية. وهذا الارتباط غير التقليدي من شأنه أن يفتح معانيها لاحتمالاتٍ متعددةٍ في أفهامنا. ونختار هنا أهم العبارات التي وردت في السورة ممّا لا يمكننا أن نحصره في معنى واحدٍ ونهائي:

تُرْجَعُ الْأُمُورُ - فلا تذهب نفسك - كذلك النشور - الكلم الطيب - يَمْكُرُونَ  
السَّيِّئَاتِ - يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ - أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ - سابق بالخيرات - غيب السموات  
والأرض - شِرْكُ فِي السَّمَوَاتِ - إحدى الأمم - مَكْرَ السَّيِّءِ.

#### ت- الجمل والآيات المنفتحة:

وستجد المفسرين يدورون حول هذه الجمل والآيات محاولين الإمساك بمعنى محدد لها، ولكن من غير الادعاء بالوصول إلى اقتراح نهائي وقاطع،

وسوف تظلّ مفتوحةً للزمن أمام احتمالاتٍ وتأويلاتٍ قادمة، متجددةً مع تجدد الآراء وتنوع العقول وتقلب العلوم والثقافات:

- ﴿يُرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [١]
- ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [٨]
- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [١٠]
- ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [١٠]
- ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [١٣]
- ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [٣٢]
- ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [٣٢]
- ﴿مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ [٣٧]
- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [٣٩]
- ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [٤٥]
- ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَاتَّ اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [٤٥]

وحسبنا أن نأخذ فكرةً عمّا ذهب إليه العلماء والمفسرون من تأويلاتٍ لهذه العبارات المفتوحة؛ بالوقوف عند نموذجٍ واحدٍ منها فقط، وليكن العبارة الرابعة، فننظر في الآراء والتأويلات التي يقدمها لنا الشوكاني في تفسيره القيم "فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير"<sup>(١)</sup>. يقول الشوكاني:

- ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾؛ أي إلى الله يصعد لا إلى غيره.

(١) الشوكاني، محمد بن علي، طبعة بيروت: دار الفكر، (د.ت.)، ج:٤، ص: ٣٤١.

ومعنى صعوده إليه قبوله له، أو صعودُ الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف. وخصَّ الكَلِمَ الطَّيِّبَ بالذكر لبيان الثواب عليه، وهو يتناول كلَّ كلامٍ يتَّصف بكونه طيباً: من ذِكْرِ اللهِ، وأمرٍ بمعروف، ونهيٍ عن منكر، وتلاوة، وغير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد، أو بالتحميد والتمجيد،

وقيل: المراد بصعوده: صعودُه إلى سماء الدنيا،

وقيل: المراد بصعوده: علمُ الله به،

ومعنى ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾: أنَّ العملَ الصالحَ يرفعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ..  
ووجهه أنه لا يُقبلُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ إلاَّ مع العملِ الصالحِ،

وقيل: إنَّ فاعل (يرفعُ) هو (الكَلِمَ الطَّيِّبَ)، ومفعوله (العملِ الصالحِ)، ووجهه أنَّ العملَ الصالحَ لا يُقبلُ إلاَّ مع التوحيد والإيمان،

وقيل إنَّ فاعل (يرفعُه) ضميرٌ يعود إلى الله عزَّ وجلَّ، والمعنى: أنَّ الله يرفعُ العملَ الصالحَ على الكَلِمَ الطَّيِّبِ؛ لأنَّ العملَ يحقِّقُ الكلامَ،

وقيل: والعملِ الصالحِ يرفعُ صاحبه، وهو الذي أراد العزَّةَ،

وقال قتادة: المعنى أنَّ الله يرفعُ العملَ الصالحَ لصاحبه، أي يقبله، فيكون قوله: (والعملِ الصالحِ) على هذا مبتدأً خبره (يرفعه).

## ٥- جوامع الكلم:

في سورة (فاطر)، كآية سورةٍ أخرى من سور القرآن الكريم، عشرات العبارات التي يمكن أن تختصر لنا في كلماتٍ قليلةٍ مواقفَ متنوّعةٍ ومتشابهةٍ في حياتنا اليوميّة. ومن شأن مثل هذه العبارات أن تضيف إلى معجم لغتنا، الرسميّة والمحكيّة، ثروةً تعبيريةً هائلةً تُغيّر، وقد غيرت حقاً، وجه الخطاب العربيّ.

إنّ بعض هذه العبارات، أو ما استعرنا له من الحديث الشريف مصطلح (جوامع الكلم)، ما زالت تبحث عمّن يكشف عنها ويربطها في كتاباته وإبداعاته بحياتنا وتجاربنا ومواقفنا، ولكن كثيراً منها قد شقّ طريقه بسهولة إلى ألسنتنا وأقلامنا، كهذه العبارات الجامعة التي اكتفينا باختيارها، مع وجود كثير غيرها في السورة، ممّا هو مرشّح لأن تثرى به لغتنا، لأنّ هذه العبارات باتت جزءاً من لغتنا اليومية، الرسمية والمحكيّة، وهي تلخّص في كلمات، كما يمكن أن ندرك بسهولة، مواقف حياتيّة أكبر بكثيرٍ من حجم كلماتها:

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [١ + ٣٤]
- ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [٣]
- ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [٨]
- ﴿ وَلَا يَنْبِتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [١٤]
- ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [١٨]
- ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ [١٩]
- ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [٢٢]
- ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [٢٨]
- ﴿ يَا ذَّنِ اللَّهِ ﴾ [٣٢]
- ﴿ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ [٣٩]
- ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [٤٣]
- ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [٤٥]

## ثالثاً: البعد الفكريّ

### ١- أبعادٌ جديدةٌ للزمان والمكان:

يصعب وأنت تتحدّث عن الإعجاز اللغويّ؛ أي عن الوعاء اللغوي للأفكار، أن تفصل نفسك عن تلك الأفكار، إنك لا تستطيع أن تهمل الحديث عن الشراب وأنت تتحدّث عن الكأس التي تحويه. وعندما نتحدّث عن "أبعادٍ جديدة" في الصورة القرآنيّة، وكذلك في "الفكرة" القرآنيّة، فإننا نفعل ذلك وفي مخيلتنا تصوّر عن بساطة البعد الزمانيّ ومحدوديّة البعد المكانيّ في ذلك الوقت، ليس عند العربيّ الذي عاش تلك الحقبة في جزيرته المنعزلة فحسب، بل عند الإنسان الذي عاش الحقبة نفسها في سائر أصقاع الأرض.

فالحديث في السورة عن (سماواتٍ عدّة) بدلاً من سماءٍ واحدة، وعن (فاطرٍ أي (بادئٍ) أو (مؤسّس) لهذه السموات، والحديث عن تجويفٍ في النهار (يلج) فيه الليل، وتجويفٍ ليلٍ (يلج) فيه النهار، وعن (تسخيرٍ) أو (توظيفٍ) أو (إخضاع) للشمس وللقمر لخدمة الإنسان، وعن وجود نهايةٍ زمنيّةٍ لحركتهما ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يتوقّفان بعدها عن أداء هذه الوظيفة، والحديث عن إمكان نشوء عنصرٍ إنسانيّ آخر، أو غير إنسانيّ، في هذه الأرض يستبدله الله بنا ويحلّه محلّنا، والحديث عن رابطٍ يربط بين الكتاب الجديد (القرآن) وكتبٍ أخرى سبقتّه وجاء هو مكملّاً لها ومتابعاً رسالتها، والحديث عن أرضٍ غير معروفٍ مكانها حيث لا يموت الإنسان ولا يحيا، رغم أنّه يحترق بناها الملتهبة باستمرار، والحديث عن (عالمٍ غيبيٍّ غير منظورٍ) في السماء، بل في سمواتٍ عدّة (السموات) ومثله على الأرض أيضاً، وعن إلهٍ فائق القدرة بحيث يعلم كلّ هذه الدرجات والأنواع المتعدّدة من (الغيوب)، بل يعلم أيضاً (ما في الصدور) من أسرارٍ وأحلامٍ ونوايا، وأنّه هو الذي (يمسك) تلك السموات، ويحفظ هذه الأرض من السقوط أو (الزوال) عن مكانها، وأنّ أقواماً آخرين كانوا يعمّرون هذه الأرض التي يسكنها الناس الآن، وكانوا (أشدّ منهم

قوةً) وبأساً، ولكن الله عاقبهم على كفرهم وجحودهم فدمرهم ومحا حضارتهم من الوجود، فلم يُبق منها إلا آثاراً هنا وهناك شاهدةً عليهم، ومُخبرةً من بعدهم بما فعلوه وما فعل بهم؛ هذه الجرعة المكثفة من "المفاجآت" الفكرية "الثقيلة" في السورة؛ لم يكن من الميسور على العربيّ الأوّل أن يتلقاها ويتلّعها وتهضمها معدة خياله من دون إحداث صدمةٍ تهتزّ لها أعماقه.

## ٢- أفكار تتجاوز الحدود الثقافية للجزيرة العربية:

أمّا لو نظرنا إلى الواقع الثقافي للإنسان العربيّ آنذاك، وأدركنا محدوديته، وهو الذي لم يسمع بكتاب، بله أن يراه أو يقرأه، إلاّ كتاب "أهل الكتاب" ومن أجل ذلك عُرفوا بهذا الاسم، لتبيّننا مدى ما يثيره في نفس ذلك العربيّ حديثٌ عن وجود (ملائكة) و(رُسُلٌ بأجنحة)، و(أنبياء مرسلين) آخرين سبقوا الرسول ﷺ وقابلهم قومهم، كما حدث معه، بالتكذيب والتعذيب أيضاً، وعن وجود (شياطين) وجيوشٍ من هؤلاء الشياطين متحفزةً للهجوم والعدوان، و(سعير) من النيران المتقددة تقع في مكانٍ ما من هذا الكون في انتظار دخول (أصحابها) إليها، وعن وجود علاقةٍ بين (الرياح) و(السحب) التي تولد و(تستثار) بفعل تلك الرياح لتسقي الأرض الموات، وعن (الصعود) الغريب للكلم الطيب و(الرفع) الأغرب للعمل الصالح بطرائق وأفنيةٍ محيرةٍ وغير واضحةٍ تصل بين الأرض والسماء، وعن وجود (كتاب) في مكانٍ ما من هذا الكون يُكتب فيه عمر الإنسان فلا يزيد عنه ولا ينقص، وعن يوم عجيبٍ يدعى (يوم القيامة) يكذب فيه المعبودون من عبودهم، وعن وجود عالمٍ آخر بعيدٍ في هذا الكون حافلٍ (بجنّات) خالدةٍ ينعم فيها المقيم بالذهب واللؤلؤ والحريير.

هذا العرض السريع لجوانب الإعجاز التجديديّ في سورة طويلةٍ أو متوسطة الحجم كسورة (فاطر) سيكون مدخلنا إلى العرض الأكثر تفصيلاً لتلك الجوانب نفسها، ولكن في سورٍ قرآنيةٍ قصيرةٍ هي الأكثر تردداً على لسان المسلم، وتشكّل جزءاً حميماً من تفاصيل عباداته اليومية.

ونؤكد من جديد أنّ عملنا في هذه السور لن يكون تفسيراً للقرآن الكريم، ولا تحليلاً للغة، ولا تدليلاً على تفوّقه البلاغيّ أو التعبيريّ، فقد استوفى القدماء القول والبحث في هذه الجوانب جميعاً، وإنّما سنقتصر على إبراز "الجديد" والجديد وحده لا أكثر، في لغة القرآن ونحوه وصوره وبلاغته وأفكاره، واستقصاء هذا الجديد ما أمكننا، وتمييزه عن التقليديّ أو المتعارف عليه عند العرب قبل الإسلام، لتبيّن حجم الكثافة الاختراقيّة التي حقّقها القرآن على مساحة جدار الفكر والخيال واللغة العربيّة، في وقتٍ كانت الجزيرة العربيّة فيه تنام كسلى على فراشٍ من رمال الصحراء لم يتغيّر شكله ولا منحنياته على مدى قرونٍ عديدة، ولم يكن يرجّى له أن يتغيّر أبداً على مدى قرونٍ قادمة؛ لولا نزول القرآن الكريم والبزوغ المفاجئ لرسالة السماء.